المنهج الفينومينولوجى
الحقيقة والأبعاد

الأستاذ عبدالقادر بوعرفة
رئيس قسم الفلسفة – وهران
الجزائر

توطئة :

لم يستطع العقل الوصول إلى تشكيل المعرفة إلا بواسطة إبداع آليات إنتاج المعرفة، والتى تشكلت كمناهج تعصم عند مراعاة قواعدها الفكر من الوقوع فى المغالطات والتناقضات والوصول إلى إصدار أحكام .

والمنهج ارتبط حضوره فى أغلب الأحيان بالنسقية، التى جعلت أحياناً علاقة الذات بالموضوع تتسم بالتعالى المفرط ، فالموضوع لا ينبغى أن يرتقى إلى مستوى الذات العارفة .

أو تجعل الموضوع أكثر أهمية من الذات ، باعتبار أن الحقيقة ليس كما تعتقد الذات العارف وإنما الحقيقة تكمن فى الموضوع وتصبح الذات مجرد مرآة تعكس حقيقة الموضوع وفق آليات المنهج .

وبقى الصراع بين المدرسة التجريبية وأنصار العقلانية الديكارتية مستعراً فى الفكر الأوربى ، ولم يكن الخلاف بينهم حول موضوع المعرفة وإنما كان الخلاف الجوهرى حول مشروعية المنهج الذى يوصلنا إلى المعرفة .

إن إشكالية فصل الذات عن الموضوع ، لم تخرج عن منطق السجال إلا مع ظهور الفينومينولوجية، والتى قدمت منهجا قائما على قلب الكوجيتو الديكارتى، فبدل أنا أفكر إذن أنا موجود ، يصبح المبدأ الفينومينولوجى أنا **أفكر إذن أنا المفكر فيه** (Ego Cogito Cogitatum) [1].

ومن خلال دراسة أعمال كل من هوسرل وميرولو بونتى وغادامير، نكتشف بنية المنهج الجديد الذى يقوم على الأسس التالية :

1 – لا يوجود موضوع خارج ما أفكر فيه ولا يمكن أن أفكر فى موضوع خارج بؤرة الذات .

2 – ضرورة بناء السؤال ضمن مقولة الشئ فى ذاته ، واختزال مقولة الشئ فى ذاته ولذاته.

3 – وعى السؤال فى حقوله الثلاثة : الماضى ، الحاضر، الماضى + الحاضر.

4 – الانتقال من أفق السؤال إلى فينومينولوجية التأويل (اللغة – الجمال – المنطق) .

5 – الانتقال من جاذبية التفكير إلى قصديته ، أى عدم فصل العملية الشعورية عن المدركات .

6 – التعالى الإيجابى .

إن الغاية من المنهج الفينومينولوجى هى إدراك العلاقة بين الذات والموضوع، والتى تتحدد وفق قصدية الذات ، لأن المناهج التقليدية لم تعط للموضوع المدرك القيمة التى يحتلها كطرف فى حقل المعرفة، إن المنهج الفينومينولوجى هو تركيب بين المنطق الهيجلى الأكثر حركية وتدافعا بين عناصر الموضوع، والمذهب الوجودى الأكثر ثورة على الأنساق القديم (2) .

ومن خلال ما سبق فإن الأسئلة التى تفرض نفسها تتبلور على الشكل التالى:

– لما ظهر المنهج الفينومينولوجى؟ ما خصائصه؟ ما حدوده؟ هل هو منهج للمنهج أم منهج للمعرفة؟ وهل يمكن اعتبار المنهج الفينومينولوجى المنهج الذى مكّن العلوم الإنسانية من التمنهج فى عصر تنوع مناهج العلوم؟

الفينومينولوجية لحظة الانبثاق :

ما الفنومينولوجية ؟

يحدد علماء المنهج كون علم الظواهر علمان * ، علم يدرس الظواهر من حيث اقترانها بأسباب حدوثها ، ويخلص إلى تحديد العلاقة المبنية على أساس العلة والمعلول، يستمد شرعية نتائجه غالبا من التجربة والاختبار وفق القواعد التى وضعها كل من فرانسيس بيكون وجون ستوارت ميل ، وهو ما يعرف لدى العام والخاص

بالمذهب التجريبى الذى يحاول أن يفصل الموضوع عن الذات العارفة إذ يصبح الموضوع هو أصل الحقيقة (المعرفة يعكسها موضوعها) .

وعلم يدرس الظواهر كما هى عليه فى الزمان والمكان دون فصل الذات عن الموضوع أو إقصاء الأحوال الشعورية النفسية عن موضوع المعرفة .

وعلم الظواهر يتخذ ثلاثة أشكال رئيسية :

1 – دراسة الظواهر النفسية من خلال علاقة الأنا بأحوالها الشعورية، ويرتبط بمبدأين:

أ – ملاحظة المعطيات النفسية من خلال أعراضها .

ب – وصف الأحوال الشعورية وصفا دقيقا مستقلا عن كل قصد أو تصور أو حكم سابق عنه .

2 – علم دراسة ظواهر الوجود.

ويختص بدراسة بنية الظاهرة من أجل معرفة شروط ظهورها أو حدوثها أو وقوعها ، ويرتكز على مبدأين :

أ – دراسة وصفية تحليلية .

ب – تفسير تكون الظاهرة وتبيان ماهيتها .

3 – علم الظواهر المتعالى .

وهو العلم الذى سيطر على الساحة الفلسفية ، وتمخض عنه المذهب الفينومينولوجى والذى يعود الفضل فى إرساء قواعده وتحديد منهجه إلى الفيلسوف الألمانى إدموند هوسرل والظواهر لم تكن علما منفصلا عن السياقات العلمية الأخرى بينما هى استمرارية للفكر الغربى ، وهوسرل يجعل رونيه ديكارت معلما من خلال كتابه (تأملات× ، يقول هوسرل : **،فالاندفاعات الجديدة التى تلقتها الفينومينولوجيا إنما تدين لرونى ديكارت أعظم مفكرى فرنسا فلقد تحولت الفينومينولوجيا الناشئة بفضل دراسة (تأملات) ديكارت إلى نموذج جديد للفلسفة المتعالية،**[3] . ودون أن ننسى دور هيجل من خلال كتابه (فينومينولوجيا الروح) .

ما الظواهرية ؟

الظواهرية هى علم وصف الظاهرة وصفا مستقلا عن الوسائط المادية التجريبية، إذ يعتمد على تحليل الظاهرة تحليلا عقليا ، مبنيا على القصدية فى الشعور ، مرتكزا على التتالى فى عملية التحليل ، كما أنه يتحدد بدور الشعور المحض أو الخالص (Phinominologi De Lesprit) .

والتى يريد من ورائها إثبات كيفية انتقال الصورة من المعرفة السطحية الحسية إلى المعرفة المجردة التى تتعالى فى مراتبها ومنازلها إلى أن تتحد مع المطلق الذى يختزن فى جوهره الحقيقة .

وكما جاء فى الموسوعة العلمية : «**الفينومينولوجية تتعلق عموما بدراسة وصفية أولية للمعطى الظاهراتى، لأجل تشكيل صورة مجردة ، وهذه الوصفية ترتبط بضرورة تحديد الشروط العامة للظاهرة باعتبارها نفسها تمثل بعدا جوهريا للكائن**» .(4)

ونتيجة انتشار الفينومينولوجية فى الأوساط الفكرية فقد أثرت فى كثير من التيارات الفلسفية والأدبية كالوجودية ، فتكون ما يعرف باسم بعلم الظواهر الوجودى (Phinominolgie) ويتمثل فى استعمال منهج يعمل على وصف ما يحيط بالذات من شروط واقعية تحدد وجوده العينى أو ما سواه .

المنطق والفينومينولوجيا :

أعمال هوسرل الأولى كانت ذات طبيعة رياضية ومنطقية ، فأول مؤلفاته كانت تحت عنوان (فلسفة الحساب) ، والتى تعرض فيها لأهم المشاكل التى عرفتها الرياضيات المعاصرة ، غير أن الكتاب لم يكن له دور فعال فى بلورة المنهج الفينومينولوجى عند هوسرل ، لكن كتابه الموسوم Prillgomeno Zur Sein) (Enlogik المترجم بدراسة فى المنطق (1900-1901) ، والذى تعرض فيه بالخصوص إلى أسس المنطق مع نقد المذهب النفسانى، يعد أولى إرهاصات الظواهرية.

لكن كتابه الثالث الموسوم بأفكار نحو الفينومينولوجيا Idenizu Emin)

(Seinen Phanan يُعدُ المؤسس الفعلى للمذهب الفينومينولوجى . والذى حاول من خلاله الوصول إلى النقاط التالية :

1 – إخضاع كل المعرفة إلى الفلسفة وبالتالى تُصبح الفينومينولوجيا (فلسفة أولى) ، ينعكس من خلالها تعالى الذات العارفة ، ويتخذ الكوجيتو الديكارتى معنى جديدا، يكون على النحو التالى : أنا أفكر إذن أنا المفكر فيه .

2 – أن يكون للرياضيات دور منهجى فى المعرفة من خلال دراستها دراسة فلسفية بحيث تقودنا إلى بلورة منهج موضوعى عقلانى، وقد قاده منهجه إلى نزوع مثالى ومكنه من جهة أخرى من دراسة الوعى .

وقد استطاع هوسرل أن يجد لفلسفته تأثيرا فى كثير من الفلسفات والاتجاهات الفكرية المعاصرة ، فلقد كانت التحليلات الفلسفية التى يحملها كتابه (أبحاث منطقية) – وجهه نقدية – ضربة كبرى للمذهبين الذين كان لهما حضورا متميزا فى أوربا المذهب الوضعى والإسمى (5) .

وفى كتابه أبحاث منطقية وجه الانتقادات التالية للمناطقة :

1 – المنطق ليس علم القواعد.

2 – القانون ليس تعميما للجزئيات الناتجة عن عملية الاستقراء .

3 – إن التجربة ليست معيار صحة الأفكار .

4 – لا يمكن فصل الذات عن الموضوع .

5 – لا يمكن فصل الموضوع عن ماهيته، من منطلق أن الفينومينولوجية هى فلسفة الماهية .

نقد المذهب النفسى :

يجزم أغلب من أرخوا لتاريخ الفكر الفلسفى أن مصطلح الفينومينولوجيا عرف فى الفلسفة الكلاسيكية كمصطلح تابع للدراسات النفسية ، ويعنى ارتباط الموضوع بملكة الإحساس غير الوهمى ارتباطا يؤدى إلى تمظهره تمظهرا يحقق الموضوعية(6) .

ومن ناحية أخرى يعترف هوسرل لعالم النفس فرانز برونتو بالفضل فى ميلاد المذهب الظواهرى من خلال أعماله حول الظواهر السيكولوجية، والذى نبه إلى

ضرورة فهم الظاهرة النفسية انطلاقا من النية . «المعرفة هى دائما نية موجهة نحو الموضوع» [7] وهو نفسه القائل : «الوعى هو دوما وعى بعض الأشياء» [8] .

لكن رغم هذا التأثير فقد وجه مؤسس الظواهرية نقدا للمذهب النفسى من خلال المنهج المتبع ، الذى يرى فيه انزلاقا نحو المذهب الإسمى والوضعى، كما أراد أن يعطى للوعى الإنسانى مكانته بعيدا عن النظرة المكبلة له ضمن أطر الأحاسيس والانطباعات : يقول عبدالفتاح إمام : «إن القيام ضد النزعة السيكولوجية عند هوسرل كان يتجه أساسا ضمن إدراج الوعى ضمن كائنات الطبيعة، بيد أنه كان يريد أن يصون الذات ويحفظها فى صميمها داخل المثالية الترنسندنتالية» [9] .

إن المقولة التالية لهوسرل تبين قيمة الشعور اللامحصور ، بل الذى يحدده الوعى القصدى، «كل شعور هو شعور * إذا حاول الوعى أن يعود إلى ذاته ويتحد معها وينغلق على نفسه إنعدم» [10] .

نقد المنهج الإسمى :

المنطق سابق فى وجوده على علم النفس ، ولا يمكن أن يكون المنطق فرعا من فروع علم النفس [11] .

إن افتراض المنطق فرع من علم النفس يجعلنا نسلم باحتمالية المعيار المنطقى، مقارنة باحتمال المعيار النفسى ، وعندئذ تصبح كل الأحكام ذاتية، وهذا يجعلنا نغير إنتاج معارفنا من جديد، خاصة تلك التى أصبحت من البديهيات والمسلمات .

أسس المنهج الظواهرى :

تشكلت الفينومينولوجية كمنهج ومذهب بعد توفر جملة من الأسس التى بفضلها انبلجت إلى الوجود كفلسفة قائمة بذاتها ، وتلك الأسس يمكن أن نورد على النحو التالى:

1 - نظرية المعنى :

نرى أن الدلالات لا يشكلها الحد المنطقى كما ذهب إلى ذلك أنصار المنطق

الصورى، بل الذى يبلور المعنى الإدراك للاسم أو الموضوع ، يقول بوخينسكى: «وهذا النقد يعد أساسا للقول بأن المنطق ميدانه الخاص الذى ينحصر فى إعطاء المدلولات، فإننا عند إدراكنا لمعنى اسم أو موضوع فإن الذى يعنيه حد منطقى أو آخر لا يمكن أن يعد أبدا جزءا من قوة الإدراك نفسها بل مجرد دلالة عن ذلك الإسم أو الموضوع، وفى مقابل الاختلاف واللامتناهى للتجارب الفردية يوجد على الدوام ما نعبر عن هذه التجارب فى حد ذاتها [12]» .

إن نظرية المعنى عند هوسرل تحاول أن تفصل المعنى عن الحد المنطقى* ، وترتبط المعنى مباشرة بالإدراك الخاص بحالة الشعور القصدى، فإدراكى لمعنى الشجرة مثلا لا يمكن فى الحد المنطقى الذى يعبر عن صيغة التجريد، بل يكمن معناها فى ما تحمله الشجرة من مدركات فى شعورى الخالص، وفيما تضفيه الذات الشاعرة على الموضوع (الشجرة) من صفات وأحكام .

ومن خلال عملية الوصف (المينو) يتحدد ما يلى :

– تحديد الكيفية التى تتم بها عملية إدراك معنى وماهية الموضوع من خلال إسقاط الإدراكات التى تتجه إلى ما لا إدراك ، يقين يؤدى إلى إثبات الموضوع على النحو الذى أدركه عليه . أو من خلال عدم إثبات الصفات عن الموضوع، أو من خلال إدراك اعتقاد ما ، والتى تتجه فيه العلاقة بين الذات والموضوع إلى إعادة ترهين الدوغما .

– تحديد معنى الإدراك وماهيته ، والتى تحاول دوما الوصول إلى ماهية الموضوع باعتبار المذهب الفينومينولوجية يقصد التمكين لفلسفة الماهية، والتى لا يُمكن لها إلا بثلاث حركات ، هى على النحو التالى :

1 – تحديد قضية أو حكم يصبح قابلا أن يكون موضوعا للإدراك .

2 – الشك فى ماهية الموضوع الأولى من حيث : الصورة، الغاية، الصدق.

3 – إعادة بناء الإدراك الجديد، لأجل إثبات صواب الموضوع أو خطئه .

إن هذه الحركات الثلاث يمكن أن تعطى للتجريد بعدا فينومينولوجيا إذا ما

استطاع العقل أن يميز بين المعنى المنطقى والمعنى الفينومينولوجى .

وحـاول هوسـرل أن يربط النحـو بعـمليـة إدراك المعنى، وخـاصـة علم اللغـة المتـخـصص فى قـضـايا الدال والمدلول ، ويبـحث فى تطور مـدلولات الكلام – أى السيمنتكية .

2 – القصدية (نظرية القصد) :

منذ البداية لابد من الاعتراف أن هوسرل ركز فى العملية المعرفية على القصد أو النية باعتباره موجه عملية الإدراك ، ومن ناحية أخرى لا تقل عن الأولى من حيث الأهمية أن هوسرل يجعل كل ما هو موجود موضوعا للتأمل الفينومينولوجى، وأن الوعى الخالص يلازم بالضرورة ماهية الموجود . ذلك أن الموضوع لا يعرف التعالى إلا من خلال وعيه لكنه الذات الذى يمثل قطبين ، قطب كونه موضوعا يستمد من تجربتى وجوده ، وقطب لكونه موضوعا أساسيا للوعى الخالص (13) .

وعندئذ يصبح الوعى الخالص مطلب الذات العارفة التى تريد أن تصل إلى ماهية الموجود، لكن كيف يمكن أن نصل إلى استحضار الوعى الخالص داخل بؤرة شعورنا ؟؟

الوعى الخالص عند هوسرل يكمن فقط فى وجود القصدية أو النية، وفكرة القصد كانطية وليست ضيقة كما تتجلى فى النص الدينى على العموم – تتخذ طابعا أخلاقيا وليس معرفيا – إذن فنظرية القصد تتجه نحو البعد المعرفى وتتخذ طابعا عقليا صرفا

والنية تتأسس عند هوسرل من خلال سلسلة التجارب التى مرت بها الذات العارفة من خلال لحظة فلسفية تمت نتيجة شعور بموضوع معين ، عندئذ تحضر الرغبة فى معرفة الموضوع من خلال التجربة القصدية المرتبط بقصديته ، يقول هوسرل :

«إن الشعور بشئ لا يعنى أن نفرغ الشعور من هذا الشئ بل أن نجعله يتجه إليه، حيث أن كل الظواهر لها تكوينها القصدى الذى يوجه الإدراك نحوها تلقائيا» (14) .

3 - نظرية الحصر :

يرفض هوسرل الشك الديكارتى كمنهج لمعرفة ماهية الموضوع ، ويرى أن الشك هو نفسه عملية يصدر من خلالها حكم على الموضوع المقصود فى ذاته، وبالتالى لا يمكن أن يحقق معرفة بإصدار حكم على حكم ، وعليه فإن المنهج الفينومينولوجيى يخلصنا من عملية إصدار الأحكام نتيجة ميله فى لحظات الوعى الخالص إلى التعالى، ونقصد بذلك أن الإدراك المرتبط بالوعى الخالص والمسيج بالقصدية يجنح إلى مرحلة الحصر والإقصاء ، بمعنى آخر هو رفض الأحكام أو على الأقل التوقف عن اصدار الأحكام ريثما يتجلى الوعى الخالص .

ونظرية الحصر عند هوسرل تحاول أن تعطى للذات العارفة لحظة مثالية لأجل تأمل الموضوع تأملا وصفيا ماهويا ، مع توفير شروط إدراك الموضوع من خلال ربطه بالأحوال النفسية للذات التى تتحدد وفق تفاعلات الذات مع أحوالها الشعورية .

إن لحظة التوقف عن إصدار الأحكام مرتبطة بلحظة تاريخية وهى لحظة الإطلاع على الأحكام والآراء التى أطلقتها المذاهب والمدارس على الظاهرة التى هى بالضرورة موضوع اللحظة التأملية .

إن من شروط الفيلسوف وفق معايير المذهب الفينومينولوجى التوقف عن إصدار الأحكام، لأن المنهج الفينومينولوجى لا يهمه الحكم فى ذاته ، بل يهمه كيف استطاع المتأمل أن يصل إلى ماهية وكنه الموضوع .

وعملية الحصر أو التعالى تمر بالمراحل التالية :

- إقصاء الحكم القبلى والجاهز عن الموضوع .

- حصر الماهية . ،ويعزل التفرد والوجود نكون قد قمنا بعملية تحديد لجميع علوم الطبيعة وعلوم الذات ، وكذلك نكون قد قمنا بتجريد تجارب هذه العلوم وفرضياتها، (15).

التركيب بين عملية الإقصاء والنية :

إن الإقصاء والتعالى يؤدى إلى حتمية وجود نية وقصد حيال الموضوع، وعندما نصل إلى أعلى درجات الوعى الخالص فإن الحقيقة تنبلج على أنها تيار من التجارب

المتعاقبة على الشعور، عندئذ تتمظهر أفعال مجردة، ولعل هذا ما أراده كانط في قوله «فإن الظواهر لابد أن تخضع لتصور الاشتراك (الأثر المتبادل) » وهكذا تكون المبادئ القبلية أساس الأحكام الصحيحة موضوعيا مع أنها أحكام تجريبية» [16].

الوعي الخالص لا يعد أفعالا غرضية ، لأن الموضوع ليس سوى معطى خاص لهذا المحمول المنطقي [17].

والموضوع الغرضي يتشكل من التفاعل الناتج بين المادة المحسوسة (HYIE) وبين الهيئة المقصودة (MORPHE) يوجد عنصر نشيط يوقط العلاقة بين N,H يتمثل في (NOESE) .

إن المنهج الينومينولوجي حاول من خلال فلسفة أنصار مذهب الماهية أن يحقق مساءلة فلسفية خالصة ، تتمثل في استنفاد التجربة الغرضية من لحظات التأمل الخالص لجملة التجارب المرتبط بالأحوال الشعورية، فيصبح بموجب هذا الاستنفاد المحمول مرتبطا بالموضوع ، والموضوع معطى أساسيا للمحمول الخالص .

إن الحقيقة عند الفينومينولوجيين ليست شيئا مستقلا ، فهي مجرد ظاهرة مجردة – موجود ما – والظاهرة ما هي آخر الأمر مشروع نية وعي خالص .

وعليه قيل : «الظواهرية مذهب الحقيقة» [18].

الإحالات والهوامش

(1) Lyotard Jean-Francois La Phenomenologie - Presses Universitaires - Paris 0 1961/0. 33-34-325.

(2) Ibid., p. 42.

(3) نقلا عن : ربيع ، ميمون ، نظرية القيم فى الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 ، ص 131 .

(4) Encyclopedie Microsoftr Encarta 99. C. 1993/1998.

(5) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ترجمة عبدالكريم الوافى، مكتبة الفرجانى ، ليبيا ، 19 ، ص212 .

(6) Chatelet-Fracois- La Philosophie De Kant Ahusserl Marabout Universite - Tome 3-Paris 1973, p. 289/290.

(7) Encyclopedie Microsoft Rencarta 99. C. 1993/1998.

(8) Encyclopedie Microsoft Rencarta 99. C. 1993/1998.

(9)إمام ، عبدالفتاح ، كيركارد راند الوجودية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1986، ص 29.

(10) المرجع نفسه ، ص 12 .

(11)بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص211 .

(12) المرجع نفسه ، ص 214 .

(13) Lyotard Jean-Francois La Phenomenologie Universitarires Paris- 1961/p. 54.

(14) إمام ، عبدالفتاح ، كيركارد راند الوجودية ، ص25 .

(15) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى اوربا ، ص 218

(16) كانط ، إيمانويل ، مقدمة لكل ميتافزيقا مقبلة ، نازلى إسماعيل حسين ، ومحمد فتحى الشنيطى ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1991 ، ص74 .

(17)بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص220 .

(18) Chatelet-Fracois- La Philosophie De - Kant. Ahusserl, p. 288.

* انظر : المعجم الفلسفى ، جميل صليبا ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، 1982 ، ص30/29 .

* وضعها هوسرل نفسه .